

# المستشرقون الناطقون بالانجليزية

وَمَدَى اقْتِرَابِهِمْ مِنْ حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ (\*)

د. عبد اللطيف الطيباوي

- ١ -

ليس هناك من جهود أكاديمية في عالم الدراسات الإنسانية تكاد تكون أسوأ حظاً في مواردها وسوابقها من الدراسات الإسلامية والعربية في الغرب. وليس من غرض هذا المقال أن يعطي تفصيلات في هذا التاريخ المؤسف ويكفي لذلك في هذا المقال أن نلقي نظرة مجملة على هذا التاريخ في معالمة السريعة لتكون هذه النظرة مقدمة بين يدي دراستنا في موضوعها المحدد<sup>(١)</sup>.

ومنذ البداية تبدو جذور العداوة اليهودية والمسيحية للإسلام في آيات القرآن فما كان أسرع أهل الكتاب لتكذيب محمد بل لتحديه في مهمته كحامل للرسالة الإلهية ومن هنا بدأت سلسلة المجادلات التي استمرت وإن تباينت الرايات المرفوعة في معارك الجدل حتى أيامنا. وقد امتد نطاق هذا العداء نتيجة للأعمال السياسية والعسكرية التي قامت بها الدولة الإسلامية في عهد الرسول وخلفائه، فتعدى حدود الجزيرة العربية ليضع الامبراطورية البيزنطية ومن بعدها المسيحية العربية.

ولم يكن الإسلام المنتصر يتجاهل المجادلين البيزنطيين، أو يهمل الرد على محاولاتهم التخريبية المسمومة. ولكن ما لبث أن فاق البيزنطيون في تنمية العداء والتحامل خلفاؤهم في أوروبا الوسيطة وذلك عن طريق بث المعلومات المشوهة أو الزائفة؛ وهكذا كان الإسلام بالنسبة لهم من «عمل الشيطان»، وكان القرآن نسيجاً من السخافات «وكان محمد «دعياً كذاباً» و«محتالاً» و«عدواً للمسيح»!! أما المسلمون فهم ليسوا سوى نوع من المتوحشين لا يكاد يحظى بميزة إنسانية!!

(\*) دراسة نشرت بعدد تموز/يوليو ١٩٦٣، من مجلة (THE MUSLIM WORLD)

ومن العسير أن نحدد إلى أي مدى أثرت هذه الدعاية في أوروبا الغربية حتى استجابت لنداء الحروب الصليبية. ولكن من أبرز مظاهر الفشل في هذا الصراع الطويل بين المسيحية والإسلام - وإن كانت أقلها وضوحاً - أنه لم يستطع أن يجتذب المسيحية رغم احتكاكها الطويل بالإسلام عن قرب إلى تلطيف حدة تحاملها أو تصحيح الصورة السائدة عن عدوها على الأقل. ومضى قرنان من النزاع وقد تزايد العداء عند كلا الجانبين، ولم تتناقص حدة التحامل أو الجهل بحقيقة الأمور.

ووقع القصاص من عدوان الحروب الصليبية في عالم المسيحية. فبدلاً من محاولة الاستيلاء على إقليم من مقدسات المسيحية، وبدلاً من شن الحرب على العرب، بدأ اتجاه جديد ينال حظاً من التأييد. وهكذا أخذ **فرنسيس الأسيزي** (Francis of Ossisi) يبحث من خلال حماسه التبشيري كيف يحول «الكفار» إلى جانب الانجيل. وعن طريق **ريموند ليل** (Raymond Lull) الذي كانت تعمل في عقله الدوافع نفسها، أدخل تعليم العربية في المعاهد المسيحية في الدراسات العليا<sup>(٢)</sup>. ولكن الهدف من وراء هذه الدراسة ما زال تخريبياً عدائياً إلى حد كبير، إنها تستهدف أن تعرف المزيد عن الإسلام لتكون أكثر تهيؤاً لعرض «نقائضه»! ولقد كان صاحب القداسة **بطرس** (Peter the Venerable) راعياً لأول ترجمة لاتينية للقرآن؛ كما كان هو نفسه صاحب حملة جدلية طائشة ضد الإسلام<sup>(٣)</sup>. ولم يلحظ تقدم ذو قيمة نحو إدراك أفضل حتى وقت قريب نسبياً فقد اكتنف المحاولات الأولى الجادة جو النزاع من جديد. وأدت عودة المسيحيين للأندلس كما أدى توغل العثمانيين في قلب أوروبا إلى استئثار نيران البغضاء والتحامل، وهكذا تقهقرت إمكانيات التصور الصحيح والتعبير المنصف. وظل العالم القديم منقسماً بين «دار الإسلام» و«دار الحرب»، ولا يلتقي القسمان إلا في ساحة القتال أو صفحات الجدل البغيضة!

وأخيراً التقى الفريقان ...

والى أن تم هذا اللقاء كان قد حدث تطوران عظيمان من تطورات التاريخ أولهما: أنه قد نمت في أوروبا الغربية قوى معينة بلغت ذروتها في النهضة الأوروبية (Renaissance) في القرن الخامس عشر الميلادي، ودعت إلى ترجمة العلم الاغريقي نقلاً عن علماء العرب في الطب والرياضيات والفلسفة... الخ، على أن هذا الاتصال العلمي على اتصالاته وعمقه لم يبد أنه أثر في الصورة العقيدية أو الإلهية أو حتى الصورة التاريخية للإسلام في النظرة المسيحية.

وتغل التطور الثاني فيما أصاب وحدة العالم المسيحي تحت لواء الكنيسة من تمزق نتيجة للقوى الجديدة: سياسية واقتصادية ودينية، وقد تمخض عنها الإصلاح الديني وظهور الدول القومية التي اشتعلت بينها غالباً نيران

المنافسة وشغفت بالمشروعات الطموحة للتوسع فيما وراء البحار . وكانت الدول القومية الحديثة في رقعتها الصغيرة نسبياً قد اتجهت إلى تحقيق مصالحها ولو على حساب مصالح دول مسيحية أخرى أو العالم المسيحي في مجموعه، وهكذا كانت البداية العملية لصلات دبلوماسية وتجارية مع البلدان الإسلامية على مدى أقرب مما تحقق من قبل .

وعلى الرغم من أن الجدل كان لا يزال في مراراته ونشاطه كعهده من قبل، وعلى الرغم من أن الهدف التبشيري كان يضاعف من سيطرته على مخيلة سلطات الكنيسة، فقد بدأت بواعث مدنية جديدة تأخذ حظها من الاعتبار على قدم المساواة إن لم تكن أكثر ولربما كان أوضح مثال لهذا التعبير بالنسبة لهذه الدراسة هو تقرير المراجع الأكاديمية المسؤولة في جامعة كامبردج بالنسبة لإنشاء كرسي اللغة العربية فيها . فهذه المراجع تقرر في خطاب مؤرخ في ٩ مايو ١٦٣٦ إلى مؤسسي هذا الكرسي « ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بتعرض كبير من المعرفة للنور - بدلاً من احتباسه في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعلمها، ولكننا نهدف أيضاً إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وإلى تمجيد الله بتوسع حدود الكنيسة، والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات »<sup>(٤)</sup> !!

ولكن معظم ما توصلت إلى معرفته الدراسات العربية أو الإسلامية التي أنشئت لتحقيق غرض جدلي أو تبشيري أو تجاري أو دبلوماسي أو علمي أو حتى أكاديمي، قد ظلت طويلاً عليها مسحة من ظلال عداء عميق الجذور . وهذا أول جالس على كرسي العربية في كامبردج يعد مشروعاً لم يكتمل إنفاذه قط لتنفيذ القرآن! وكان ممن أعقبوه على هذا الكرسي في أول أمره خلال القرن الثامن عشر من كتب مؤلفاً رائداً عن « تاريخ العرب » (History of the Saracans)، كما حذ أن يقرأ القرآن لمعارضته أو تنفيذه! هكذا يبدو أن المعرفة المتزايدة لم تقطع سوى خطوات محدودة لتبديد ما تراكم عبر القرون من موروثات!!

كذلك لم تحدث التغيرات التاريخية تحسناً على الموقف . لقد وضع التوسع الأوروبي فيما وراء البحار يده على مساحات كبيرة من ديار الاسلام على مرّ الزمن، وقد بلغ هذا التوسع ذروته في القرن التاسع عشر عندما صارت أوروبا سيدة لمنطقة إسلامية شاسعة يسكنها ملايين المسلمين . ولقد صحب الاستعمار السياسي أو اتبعه تعزيز ثقافي أكثر دهاء .

وتدهورت ثروة العالم الإسلامي إلى هاوية سحيقة، وأصبح مصر مدنيته إلى حد كبير في أيدي القوى المسيحية<sup>(٥)</sup> .

وفي ظل الوضع الجديد بدأ التعليم المدني يعد جذوره كما أتيح للعمل التبشيري أن يكون ممكناً . وتقاسم

التعليم المدني والتبشير المسيحي الاتجاه إلى تغذية نزعة التشكيك في أسلوب حياة المسلمين - مجرد التشكيك على الأقل<sup>(٦)</sup>. وعمل كل من السيد المسيحي (الجنتمان) « بناء الامبراطورية » والمبشر المسيحي « سفير المسيح » على التأثير بطريق مباشر أو غير مباشر في مجرى التعليم في البلدان الإسلامية . وأخرجت هاتان الطبقتان من العاملين عدداً من المتخصصين الجدد في العربية أو الفارسية أو التركية أو الإسلام كانوا رواداً بين أيدي المستشرقين الأكاديميين .

وكان الطريق مفتوحاً آمناً كذلك أمام الرحالة المحب للاستطلاع . من لديه فراغ الوقت ورومانسية الخيال وثراء الجيب من الساعين إلى المعرفة الذين يخطون كتابات سطحية عن الشرق أو الآثار أو المخطوطات التي يتوصل إليها . ولكنا خلال هذا كله كنا ننبين ملامح الباحث المجرد، مثل أ. و. لين (E. W. Lane)، الذي لم يكن يكل أو يمل<sup>(٧)</sup> . واقتنع التبشير من كتابات هؤلاء، أنه إذا كانت قوة الإسلام السياسية قد اهتزت، فإن انحلال قوته الروحية وتحول اتباعه إلى المسيحية قد بات في متناول اليد .

هكذا كانت زاوية النظر، حين استهلكت الجماعات التبشيرية البريطانية - وغيرها - عملها في الشرق، في بلدان إفريقية وحوض البحر المتوسط . ومنذ البداية كان هناك تجاوب متبادل إن لم يكن هناك تماثل في المقصد بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الانجيلي . ويصدق هذا بصفة خاصة على المتجهين للدراسات العربية بجامعة إنجلترا اللتين أدخلت فيهما دراسة العربية لتكون عوناً للدراسات الإلهية والانجيلية عن طريق باحثين هم أنفسهم ينتظمون في سلك هيئات دينية (holy orders) . وهكذا عمل معهد مكبريد (Mcbride) في أكسفورد ومعهد لي (Lee) في كمبردج<sup>(٨)</sup>، لصالح جمعية الكنيسة التبشيرية (Ghurch missionary Society) في ترجمة « بروتستنتية » للانجيل والمزامير إلى العربية .

وعاش التحالف بين الجانبين على وهنه خلال القرن التاسع عشر . ولكنه بقي قائماً بصورة من الصور إلى عهد مرجوليوت في هذا القرن، ولم ينحل تماماً قط . وتعلم الفريقان أن يراجعوا أهدافهم ومناهجهم، ولكن ظل هناك على حاله تيار عميق من الفكر السائد - ربما غدا الآن كامناً في أعماق ما وراء الشعور - يذهب إلى أن الاسلام لا بد أن يعاد تشكيله في قوالب غربية (westernization) أو عصرية (modernization) أو إصلاحية (reformation) . وهكذا صلى المبشرون وجادل المستشرقون، وكتب الفريقان أو واصلوا الكتابة بدرجات متفاوتة من الدهاء وبعد النظر في تناول الموضوع .

ولنحصر الآن دراستنا في بريطانيا، فهي موضوع هذا البحث . على أن الدراسات الشرقية في بريطانيا - كغيرها من البلاد - كانت مرتبطة بتطور الدراسات الإنسانية في الجامعات الأوروبية نتيجة لتأثير هذا التطور في دراسة التاريخ عموماً وفي الاقتراب من حقيقة الاسلام بوجه خاص .

وأسهم الباحثون الانجليز والفرنسيون والألمان وغيرهم من الباحثين من مختلف الأمم بجهود كبيرة من الدراسات العربية والاسلامية عن طريق التدريس والكتابة ونشر النصوص . واستطاعت جهودهم مجتمعة أن تبيء ظروفاً ملائمة لرعاية اتجاه متميز للاقتراب من حقيقة الاسلام يكون مخلصاً كما يمكن أن يصدق عليه وصف الأكاديمية<sup>(٩)</sup> .

وليس من شك أن ثمة تقدم ملحوظ صوب هذا الهدف قد حدث . ولكن لا يشك كثيراً أيضاً في أن الوصول إلى هذا الهدف لم يتحقق لعدد ذي خطر من الدارسين المعاصرين للاسلام ، سواء منهم من لقي ربه أو من لا يزال على قيد الحياة وجهودهم تنقسم بطبيعتها إلى قسمين متميزين : نشر النصوص والدراسات التحليلية ، مما سيرد تفصيله فيما بعد . ولكن يمكن أن نقرر هنا على سبيل الاجمال أن النظرة العلمية للدارسين للاسلام من الناطقين بالانجليزية - وهم الذين نقصر دراستنا عليهم في السطور التالية - كانت أقل عمقاً في دراسات هؤلاء منها في نشرهم للنصوص . ولا تعوزنا الشواهد على قصور التمييز حتى بالنسبة لنشر ترجمة لبعض النصوص ، حيث كان الموضوع يستلم لأهواء « الآراء الثابتة المقررة » عن الاسلام ، مما لا يزال قائماً في عقول الباحثين الغربيين .

ولربما كان من غير المؤلف في مثل هذه الدراسة أن نعني بالمستشرقين الأحياء أكثر من عنايتنا بمن أصبحوا في ذمة التاريخ . ولكن إذا كان العرف الجاري يتقبل تقديم عرض لكتاب ما يزال مؤلفه على قيد الحياة بمجرد ظهور الكتاب ، والنقل عنه في معرض التأييد أو التفنيد ، فإنه يغدو من البحث المشروع بالتأكيد أن تناقش جهود أي مؤلف في مجموعها أو أجزائها ، مدى نجاحها إذا ما تناولت موضوعات لها أهميتها الحيوية . والأحياء - لا الموتى - هم القادرون على أن يرونا في أنفسهم انعكاس النتائج التي تمخضت عن نشر آرائهم وهذا هو أحد مقاصد هذه الدراسة ، أن تذكر بعض الباحثين بالصدمة التي تحدثها آراؤهم لعقل المسلم في هذا العصر العلمي .

ولا بد من إرجاء كلمة تحذير... أن التحليل التالي - وهو ثمرة لدراسة وتأمل استغرقنا وقتاً وجهداً - لا يحمل أي روح للجدل . ويخطيء من يظنه اعتذاراً أملاه الحماس لعقيدة دينية أو قومية . وإنما هو عرض لجهود مخلص في سبيل تحقيق تفاهم أفضل لمسألة قديمة . وكتب هذه السطور يعتقد أن ألوان التحامل القديم قد تكون تضاءلت كثيراً منذ فجر هذا القرن لكنها ما زالت تعيش قوية ، وما زالت فئة من الباحثين في العربية والإسلام تعمل على نشرها في الغرب على نطاق واسع . ثم أن الكاتب يخشى أن يعزز التحامل « القومي » مؤخراً من شأن التحامل « الديني » . فهناك من الشواهد ما يدل على أن الرصيد المخزن من مشاعر العداوة للاسلام يمتد الآن الى العرب أو على وجه أخص القومية العربية . ولا نريد أن ندخل في تفاصيل لا طائل تحتها ، ولكن هذا الشعور قد يتفاقم على طريقة العصور الوسطى الى حد يلحق الوبال بالدراسات الشرقية والعلاقات الانسانية جميعاً . ومن

أجل الحرص الصادق على كليهما معاً كانت هذه المناقشة .

## - ٢ -

إن بعض المستشرقين الناطقين بالإنجليزية - ونحن لا نقصد منذ الآن بهذا الاصطلاح المرتبط بالجنس والسلالة مستشقي بريطانيا وحدها، وإنما نقصد مستشقي أميركا الشمالية أيضاً - قد عرض لدراسة الاسلام خلال دراسات للكتاب المقدس أو اللاهوت، بل الواقع أن من هؤلاء من ينتظم في هيئات دينية (holy orders)، والبعض الآخر من هؤلاء المستشرقين وجد نفسه في نطاق هذه الدراسة مصادفة نتيجة للإقامة أو خدمة التبشير أو الخدمة العسكرية في بلد إسلامي . ولكن هناك من اختار دراسة الاسلام قصداً كوجهة له في حياته العلمية - وربما كان هذا يصدق بصفة خاصة بالنسبة للجيل الأحدث نشوءاً . وإذا كان لنا أن نصف في كلمة ما لاقوه من دربة في هذا المجال، فمن الصواب أن نقول أن معظمهم قد تلقى مراناً في اللغة أو الأدب - بصرف النظر عن الأساس العقيدى في بعض الحالات . ولكن قليلاً منهم من درب على معالجة التاريخ . وربما خاض واحد أو اثنان أخيراً نوعاً من مخاطر التجربة في مجالات علم الاجتماع وعلم النفس .

وقد يكون هذا إحدى العقبات الخطيرة . فكثير من دراسات المستشرقين الناطقين بالإنجليزية قد تتميز بالتألق، ولكن حين يغوص المرء تحت المظاهر السطحية من الحواشي المتعالة والمراجع المنسقة، يجد المرء نفسه مضطراً لأن يواجه نذير الخطر في إلقاء القول على عواهنه والتخمين وإصدار الأحكام التي لا يشهد الا القليل من الشواهد، أو لا يشهد لها شاهد قوي على الإطلاق أن المهارة في فك رموز النصوص العربية (أو الفارسية أو التركية) شيء له اعتباره بالطبع، ولكن المقدرة على اقامة المادة المختارة في بناء جامع ومن ثم في عمل تاريخي بالمعنى الفني المقبول شيء آخر تماماً . والتاريخ بوجه عام يتعرض لهجمات الغرباء أكثر من غيره، وغالباً ما يتناقل الناس ان كل من أمكنه استعمال القلم يستطيع أن يكتب التاريخ . وفي مجال الدراسات الاسلامية تكون المادة اللغوية أو الأدبية أو التاريخية من التشابك لدرجة تلزم الباحثين أن يتوفروا على بذل الكثير من المحاولات، وفي خلال هذه المحاولات يجدون أنفسهم يكتبون التاريخ من حيث لا يدرون في غالب الأمر، وهم لم يؤهلوا لهذا العمل الا قليلاً . ومن ثم يسهل علينا أن نعرف لماذا عولج موضوع « الإسلام » بأقلام قليل من المؤرخين المستشرقين على صورة أفضل كثيراً من معالجته بأقلام غالبية المستشرقين من اللغويين .

ونحن نورد فيما يلي قليلاً من العثرات في مؤلفات المستشرقين التي تشهد على نقص المستوى التاريخي العلمي . ولكي يكون نطاق البحث محدوداً وميسوراً سنقصر ملاحظتنا على الباحثين في الدراسات العربية، فليس ثمة مجال لاتهام أحدهم بباعث من بواعث الجدل أو التبشير . وجميعهم يؤخذون باعتبارهم متوفرين على النشاط

الأكاديمي الذي يحمل في ذاته التبرير والجزاء . والمستشرقون يعملون بالطبع خلال اضطلاعهم بواجباتهم المعتادة على تدريب دبلوماسيين ومبشرين ورجال أعمال بجانب جهودهم في العمل على استدامة بقاء نوعهم بتدريب من يخلفهم في التدريس والبحث ومن هنا تكون أهمية ما يحملون من (ايدولوجية) بالنسبة لما يخلفونه من آثار وما ينطبع منهم على غيرهم . ومقصودنا بالضبط أن نعرض هنا لمناقشة الايدولوجية كما تحملها كتب هؤلاء، لأجل أن نبرز المواضيع التي أغفل فيها التدقيق في اتباع القوانين المسلم بها في البحث العلمي .

وربما كان أبرز الأمور التي لا تراعى فيها قواعد (اللعبة) ذلك المفهوم الذي شغف به معظم المستشرقين عن دور محمد كرسول لله وطبيعة الرسالة التي أمر بإبلاغها كما حفظها القرآن . ومحمد بالنسبة لجماعة الاسلام هو آخر رسل الله للبشرية، أرسل مصداقاً لرسالات الأنبياء السابقين ومكملاً لها . والقرآن بالنسبة لهذه الجماعة هو كلام الله الأزلي غير المخلوق، أوحى إلى محمد منجماً على فترات عن طريق الملك جبريل . والدعوة إلى نشر هذه الرسالة هو كالرسالة نفسها من أمر الله ووحيه .

وأي كاتب - وإن لم يكن مسلماً مؤمناً - يتخلف عن مراعاة هذه الاعتقادات وهو يكتب عن الاسلام إنما يخاطر بتعريض نفسه للاتهام بنقص في النظرة الموضوعية الشاملة وعند معالجة هذا الموضوع قد يكون الطريق السليم أن يقرر الكاتب وجهة نظرة المسلم كاملة في تمام ووضوح لا يدعان مثاراً للشكوى أو سوء التأويل . وإذا ما كان للكاتب رأي مغاير أو إذا ما رغب في الإشارة إلى آراء مغايرة، فسوف يكون موقفه مقبولاً تماماً حين يبدي ما يريد منفصلاً متميزاً بعد أو يقرر وجهة النظر المتعارف عليها بين المسلمين .

غير أن هذا النهج المنطقي والطبيعي في العرض قلما يتبع مع الأسف، وكثيراً ما يحدث العكس، فيتعرض القارئ نتيجة لذلك - ما لم يكن على علم - إلى شيء من الابهاء برأي معين، أو يتعرض على الأقل إلى اختلاط في الأمور تجعله عاجزاً عن التمييز بين الأصل المتوارث لدى جماعة المسلمين وبين رأي الكاتب . وهكذا نجد كثيراً من المستشرقين الذين يحملون غيرهم أعباء معارفهم الخاصة يهملون ملاحظة مبادئ أولية للمنهج العلمي في معالجة المسائل التاريخية . فهم يؤكدون مثلاً أن القرآن من إنشاء محمد<sup>(١٠)</sup>، ثم يذهبون مذهباً بعيداً في تأسيس الأحكام التاريخية والعقيدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد وسرعان ما ترتفع هذه بمحض الشهرة إلى مرتبة الحقائق!

وربما كان هذا أحد العوامل الكبرى - إن لم يكن أكبر العوامل في خلق نزعة من التشكيك - إن لم يكن العداة - لدى العلماء والمسلمين المتعلمين إزاء جهود المستشرقين ويشترك في هذا الشعور خريجو المعاهد الغربية بل وتلاميذ المستشرقين المعروفين أنفسهم!!

لقد ذهبت الأيام التي كان يكتب فيها المستشرقون غالب كتاباتهم ليقروا مستشرقون مثلهم! ونحن قد ننحي جانباً الدراسات الفرعية المتخصصة (specialized monographs) لنجد معظم الانتاج الحاضر يقرأه ويقدره أعداد ضخمة من الباحثين والمثقفين واسمي الأفق في الغرب، ومن هؤلاء أعداد قد تكون أضخم في العالم الاسلامي. والمسلمون الآن وقد تكررت الهجمات الجدلية والتبشيرية على عقيدتهم واستطال أمد السيطرة الغربية سياسية وثقافية على ديارهم، قد غدوا عرضة لمواجهة الأذى بصورة أشد من ذي قبل.

ولم تتوقف الآراء المنهجية المتجنية على أن تجد سبيلها إلى النشر على أية حال. ولا بد أن أصحاب هذه الآراء على بينة من أنه مما يؤدي مشاعر المسلمين أن تطرح جانباً عقيدتهم الأساسية في أن الاسلام من عند الله، وأن يعرض بصورة أو بأخرى أن محمداً قد اصطنع دعاوي كاذبة لجعل من نفسه حامل رسالة إلهية، وأن القرآن نفسه ليس على هذا النحو سوى تأليف محتمل! أفليس يكون ادعى للتفاهم الإنساني وأولى بالبحث العلمي أن تترك أمور العقيدة على حدة، وأن توجه الجهود إلى مجالات أكثر ظهوراً وأيسر إدراكاً مثل الأدب والفن والعلم، وهي مجالات على الرغم من جهود المستشرقين ما زال يعترضها الكثير من علامات الاستفهام؟ وليس من شك في أنه من الممكن لمستشرق مسيحي (أو يهودي) يعتقد غير عقيدة المسلمين أن يضع مفهوم المسلم لدينه في تعبير المسلم واصطلاحه<sup>(١١)</sup>. وهو حين يفعل، لن يكون أكثر اقتراباً من المنهج العلمي فحسب، ولكنه سيجعل نفسه في مركز أفضل كي يفهم مكان دعوة الاسلام بين أحداث التاريخ.

إن المسلم المؤمن والمستشرق المتشكك هما أيضاً قطبان متافرات بالنسبة لأصول الاسلام، وهنا أيضاً تنزع آراء الغالبية من المستشرقين الناطقين بالانجليزية وغيرهم الى خلق شعور الاستياء بين المسلمين، وبالتالي وضع عقبات خطيرة في طريق الحركة الفكرية بين الجانبين. فالمستشرق وقد طرح احتجاج المسلم لعقيدته في الأصل الإلهي للإسلام وقرر أن محمداً كإنسان ودون أية وساطة إلهية هو المسؤول عن إنشاء القرآن قد غدا جد مشغول باستكشاف «الأصول» لليهودية المسيحية دون التوصل إلى نتائج حاسمة أخيرة، اللهم إلا الإشارة لمقابلات واضحة جلية، ثم إزجاء الحديث في معرض هذه المقابلات، وهو حديث يتخذ سمة التعالم أو التجادل حول الواضح الجلي!!

إننا نستعمل كلمة «التجادل» قصداً للتعبير عن هذا النوع من الحديث (speculative)، وذلك للسبب التالي: فلننس لحظة ما يؤمن به المسلمون، ولنعطِ المسألة اعتبارها كمسألة تاريخية صرفة<sup>(١٢)</sup>. ولنفترض جدلاً أن القرآن من إنشاء محمد، كيف يتسنى لدارس التاريخ أن يثبت اقتباس محمد من المصادر السابقة عليه؟ إذا كانت المسألة بالتخمين فليس ثمة كسب وراء ضياع الوقت في اختبار التفاصيل، أما إذا كان الأمر خاضعاً لنهج تاريخي صارم عنيف، فإن أي شاهد يقدم جدير بالملاحظة الدقيقة. وعلى أية حال، فإن أي شاهد قائم أو



مستعمل لتعزيز دعوى الأصل اليهودي المسيحي لا يثبت للمراجعة والنقاش .

ولا يمكن قبول المقابلات وحدها في موضع يحتاج إلى شواهد حاسمة ذات نتائج قاطعة . وهيهات أن تكفي التنف المقتطعة والاشارات والاستدلالات المعتسفة والتخمينات الذكية في هذا المقام ، فضلاً عن أي مقام ! ونحن نحتاجُ لخيال قوي جداً لمتابعة القول بأن محمداً - الذي قررت الأصول الدينية أنه لم يكن يقرأ أو يكتب كان على التخطيط الذي أنشأه المستشرقون له قد جلس عاكفاً في مكتبته يبحث كتب الأولين لينقل عنها<sup>(١٣)</sup> ، لأجل تأليف الكتاب المعروف بالقرآن ! قد يحمل هذا التعبير بعض المبالغة بغير شك ، ولكنه يحمل ما تذهب فيه هذه الدعوى إلى التفصيل<sup>(١٤)</sup> !! .

إن المقابلات والمشابهات خداعة للغاية !! إنها لا تكون بالضرورة دليلاً علمياً على نسبة كتابين متشابهين ، إذ يعوزهما التدليل على الاقتباس الواعي من اللاحق للسابق . وقد يجوز أن يكون كلاهما ناقلاً عن مصدر ثالث مشترك !

والحق أن الباحث الذي نظر إلى الكتاب المقدس والقرآن على أنها وثائق إنسانية قد ينزع بمنطق سليم إلى تتبع بعض ما جاء فيهما من آثار التراث الفعلي المبكر للشرق الأدنى . وعلى أية حال يحتاج إثبات الاقتباس السامي الفعلي بالضرورة إلى شواهد أكثر إقناعاً مما جرى عرضه حتى الآن .

إن فيكو ( Vico ) ، هو الذي قال إن الأفكار تنتشر عن طريق استكشاف كل أمة - أو ثقافة - مستقلة عن غيرها لاحتياجاتها في أية مرحلة من مراحل تطورها<sup>(١٥)</sup> . ولقد قال أحد المستشرقين البارزين نفس القول مع تعزيز بتوضيح إذ يؤكد أن الثقافة المستعيرة - في حالتنا التي نعالجها الآن النظام الديني - لا بد أن تحس هي نفسها حاجتها خلال تطورها الداخلي إلى غذاء من الخارج وكل ما تستعيره في هذا السبيل لن تنتفع منه إلا إذا استند إلى هذه العناصر من الثقافة القومية - أو من الدين التي تطلبت الاستعارة والثقافة الحية أو الدين - ترفض تلقائياً كل العناصر الدخيلة التي تتعارض مع قيمتها الأساسية<sup>(١٦)</sup> .

وكاتب هذه السطور ، لا يرى فيما أريق من مداد سَوَد صحائف المجلدات المتعددة عن أصول ( origins ) الإسلام دليلاً مقنعاً بالمعنى التاريخي ، بحيث يثبت أن مثل هذا الاقتباس قد حدث فعلاً . بل على العكس نرى الشاهد المعاصر الوحيد الذي ما زال باقياً هو من آيات القرآن نفسه ، وهذا يستبعد مثل هذا الاحتمال بأقطع عبارة ومن المستغرب أن هذا الشاهد يطرح جانباً في الغالب ومن هنا تأتي ملاحظة باحث حاذق له جهود المشكورة في الدراسات الإسلامية حيث يقول : « إن الإسلام يمزج دائماً بين المقدرة على تمثيل العناصر الأجنبية والعزوف عن الإقرار بالأصول التي استمدت منها »<sup>(١٧)</sup> .

وهذه ملاحظة تستحق البحث ولو بصورة عابرة، ما دامت قد أوردت بصورة عابرة! فإذا كان المقصود بكلمة الإسلام هو مدنية الاسلام أو حضارته أو ثقافته، فإن مسألة تمثل العناصر الأجنبية أو مصادر هذه العناصر لم تكن قط محل إنكار<sup>(١٨)</sup>. أما إذا كان المقصود هو العقيدة والدين، فإن كانت هذه الكلمات لا يكاد يحتاج إلى من يذكره أن الاسلام اذا ابتغى أن ينفذ عنه ما كان مثاراً لنبيه عليه، فإنه لن يكون بعد هو الإسلام في خصائصه المعروفة وسوف يتخلى عن التعالم الصريحة في كتابه المقدس. والإسلام كعقيدة كل لا يقبل التجزئة، إما أن يؤخذ كله وإما أن يترك كله.

هناك مثال لكثير من الآراء الفطيرة التي يكاد يخفيها ما يساق من عبارات تبدو مقتبسة ولكنها تفقد رونقها بإمعان النظر عن قرب. وحتى المستشرقين الذين توصلوا مع أنفسهم إلى التوافق على قبول صدق محمد والاعتراف بأنه دعا إلى دين جديد متميز تميزاً أساسياً يعودون ليؤكدوا في الوقت نفسه أن رسالة محمد لم تكن كلها من مصدر إلهي! وهذا نص لباحث آخر له أبحاث قيمة عن حياة محمد، إنه يقول: «إن على الإسلام أن يقر بحقيقة أصله - ذلك التأثير التاريخي للتراث الديني اليهودي المسيحي»<sup>(١٩)</sup>. وهنا تؤخذ مسألة «الأصول» كحقيقة مقررة ويشار إليها على هذا النحو دون تمحيص أو مناقشة<sup>(٢٠)</sup> وإذا ما استعرنا أسلوب النص ربما قلنا إن على الكاتب أن يقر بأنه لم يصب على أي وجه من الوجهين: عندما اعتبر محمد نبياً صادقاً ثم عزا إليه التلاعب، ما دام وهو الذي يفترض أنه مؤلف القرآن لم يعترف بما اكتسبه من أفكار الآخرين!

إن هذا الازدواج يرجع للتناقض مع النفس، وهو غير مقنع في أي من وجهتي النظر في المسألة، لأنه لا يؤيد إحدى الوجهتين كاملة ولا ينقض الأخرى تماماً. والمسلم المؤمن سيظل على موقفه، كما سيبقى هذا المجادل على موقفه. أما الكاتب الذي درب على معالجة التاريخ فهو لا يحاول أن يركب جوادين في وقت واحد. وقد تكون هذه المحاولة للتوفيق جديرة بالتقدير، ولكن نتيجة المحاولة المخيبة لآمال كل من المؤيد للعقيدة والمعارض لها على السواء، كما أنها لا تلقى ترحيباً من المؤرخ المحايد الذي يفتقد الأدوات اللازمة للتحليل. والحق أنه على الرغم من التقدم في كتابة التاريخ العلمي، فإن هؤلاء الازدواجيين (dualists) في الدراسات الإسلامية قد أسهموا بجهود قد تكون متميزة في ذاتها ولكنها تدل على إدراك أقل مما كان لدى المتطرفين السابقين من مؤمنين ومجادلين، والذي يحاول اللاحقون جاهدين عن وعي أو غير وعي أن يشغلوا أماكنهم ويحلوا محلهم.

العقيدة الإسلامية ذاتها . وعلى الرغم من أن التقدم نحو البحث الأكاديمي ليس محل جدل فإن من الواضح في هذا الصدد أن صورة العصور الوسطى للإسلام قد ظلت في جوهرها دون تغيير ، وإنما نفضت عنها الثياب القديمة لأجل أن تضع ثياباً أقرب إلى العصر . وتتعدد علامات الإصرار على الأفكار العتيقة سواء فيما يتعلق بالقرآن ومحمد أو ما تعلق منطقياً بالعقيدة والشريعة والتاريخ في الإسلام . وليس الاطناب أكثر من ذلك في هذا الأمر بمغروب أو مفيد . وإنما نعود الى تقدير الموضوع من زاوية أخرى .

لقد كان من نتائج التوغل الغربي في ديار الإسلام أن تعرض عقل الشباب لمجادلات مضللة عن طريق التعليم المدني أو الجهود التبشيرية الى حد كبير ، وهي مجادلات سبق أن صيغت لتوافق من تقوضت العقيدة المسيحية في صدورهم تماماً في أوروبا الغربية . ولكن على العكس من أسلوب الجدل الوسيط ، كان للمنهج الجديد هدف ايجابي وخاصة بالنسبة للمبشر ، هو التحويل للمسيحية . وهذه الطريقة في أبسط صورها هي طريقة مقارنة الديانات ( Comparative Religion ) ، التي تحاول أن تقارن المسيحية بالإسلام ، لغير صالح الأخير في الغالب الأعم !! وما زال هذا الأسلوب قائماً في أيامنا وان كان لا يصرح الآن بمقاصده الإنجيلية الصريحة .

وهنا يكون الأمر أيضاً أكثر دلالة اذا قدمنا أمثلة صريحة ، ولكن يمكن أن نقرر أولاً بضع مبادئ عامة . لقد كان منشأ دراسات مقارنات الأديان في الغرب يرتبط بالجدل ، ولقد سبق أن قورنت اليهودية بالمسيحية ، وبدلاً من أن تؤدي المقارنة الى تنمية الفهم الصحيح فإنها قد ولدت مزيداً من العدا . وهكذا كانت النتيجة بالنسبة لمقارنة اليهودية والمسيحية بالإسلام عن طريق اليهود والمسيحيين الذين اعتنقوا القول بأن الاسلام هو ثمرة لإحدى الديانتين السابقتين عليه أو ثمرة لها معاً . وبينما نجد هناك علاقات اتصال عضوي (organic relationship) مسلم به بين اليهودية والمسيحية ، فإنه ليس من المسلم به أو المدعّم بالبرهان العلمي وجود أي علاقة اتصال بين أيهما وبين الإسلام . وإنما نجم العدا اليهودي أو المسيحي للإسلام من صراع سياسي وعقائدي على مدار التاريخ ! وانه لتعليق مؤسف بالنسبة للحكمة الجامعة لدى هؤلاء العلماء من أتباع هذه الديانات ، أن يذكر أنهم لم ينجحوا قط في ازالة أسباب العدا والخصاص المتبادلين ، ولا بد أن يتقبل المستشرقون نصيباً من المسؤولية عن استدامة هذه الحال المحزنة للأمور .

ولذلك فإنه ما لم تحدد أهداف مقارنة الأديان في المجال الإسلامي بوضوح وما لم تقبل قواعد معينة لمنهج المقارنة من العاملين فيها ، فإن هناك مخاطرة بأن تتمخض المقارنة عن مجادلة جوفاء ! وقد يدعى هنا أن الراغبين في القيام بهذه الأبحاث لا يضمون جوانحهم على مقاصد جدلية أو تبشيرية وأن اهتمامهم الرئيسي هو اهتمام أكاديمي . وإذا كان ذلك كذلك ، فإنهم لا بد أن يتبينوا أن المقارنة تتطلب التسامح والتجاوب والتقدير ممن يضطلع بها ، اذ يكون الهدف الرئيسي هو تعميق ادراك المرء لثقافته القومية - أو تراثه وتقاليده ( tradition )

وللثقافة الأخرى - أو التراث والتقاليد التي تجري المقارنة معها . ومثل هذا الفهم من شأنه أن يربي اتجاهًا نقدياً لا بالنسبة لثقافة الغير - أو تراثه وتقاليده ، بل بالنسبة لثقافة الباحث نفسها - أو تراثه وتقاليده .

وعلى ذلك فإن أي مسألة تدرس دراسة مقارنة لا بد أن تقرر بالتعبير المقبول لدى هؤلاء الذين استمدت هذه المسألة من تراثهم وتقاليدهم - أو ديانتهم بالنسبة لموضوعنا . ولا بد أن يوصل بين سائر الظروف المحيطة بها ويحكم عليها طبقاً للقيم السائدة في النظام القومي الذي تنتمي إليه . وإذا ما نالت هذه المبادئ الأولوية القبول فإن أي كاتب يستشعر عداوة أو نفوراً أو مجرد الإعراض عن تراث غريب عليه يجب أن يعترض صغراً ، وعليه أن يعتبر نفسه في أمانة غير صالح عقلياً وعاطفياً لمحاولة المقارنة التي لن تثمر نفعاً ملموساً للبحث العلمي في هذه الحالة .

١ وبينما لا نجد أحداً لحسن الحظ من المستشرقين الناطقين بالإنجليزية المعاصرين يبدي مثل هذه الضغينة وهذا الحقد بصورة معيبة - مثل ما تجد في مؤلف لامنس (Lammens) المعروف إلا أنه قد نددت من حاول المقارنة منهم هنا أو هناك تحاملات دينية أو عقائدية من شأنها أن تنتقص من قيمة جهودهم وتهز الثقة في أبحاثهم .

ان النظرة الأولى للإسلام تكشف عن مواضع شبه بينه وبين المسيحية ، ولكن النظرة الفاحصة عن قرب تبرز خلافات أساسية . وهذه الحقيقة كانت غالباً ما تثير المبشرين في الماضي ، وما زالت تستميل قليلاً في المجال الأكاديمي الى التحايل على تصيد مثل هذه الشوارد « كأصول للإسلام »! وينزع المبشر والباحث الأكاديمي الى أن يتناسى وهو ينال من قدرة محمد بطريق مباشر أو غير مباشر ، كيف يقدر المسلمون الأتقياء المسيح!

وفي كتاب قريب من سلسلة بنجوين (Penguin) عمل مستشرق هو قسيس انجليكاني على عقد هذه مقارنات ليظهر أن الإسلام كان في صدق صورة غير محكمة أو مشوهة للمسيحية<sup>(٢١)</sup> ، وعلى كل حال فقد قدم المؤلف الحجة لتبرير التساؤل عن كفايته كقاض غير متحيز وليس فقط بما أبداه من آراء غير مقنعة ولكن أيضاً بما أقر به من مشاعر ازاء الرسالة المودعة في ثنايا القرآن . إنه يقر في أحد مواضع الكتابة أن للقرآن بالنسبة إليه ومن على شاكلته في التفكير (فهو يستعمل ضمير (نا) الدالة على الفاعلين) مضموناً رجعياً يدعو للتأخر (Repellent Content) <sup>(٢٢)</sup> . والكاتب يتكلم في موضوع آخر عما يثير (نفورنا) من بعض الصور في الإسلام ، دون تحديد<sup>(٢٣)</sup> ! وفي هذا ما يكفي لإقناعه كي يبتعد عن الموضوع ولكنه يتراجع عن محاولة ترجمة السيرة إلى الإنجليزية ، واتخاذها مادة تستعمل في التعليق وغيره كي يعطي تحامله النغمة الملائمة . وما دام قد نشر من قبل نقد منفصل لترجمته<sup>(٢٤)</sup> فليس من حاجة أن يقال المزيد في هذا الصدد .

وهناك دارس آخر للإسلام ، هو أيضاً من رجال الكهنوت ، يستحق الذكر هنا بوجه خاص بسبب تقديمه

لمزيد من الجدل السطحي (speetulation) الذي يعرض للتشابه بين المسيحية والإسلام. وهو يكتب «إن من أسباب تباعد المسلمين والمسيحيين عن بعضهم البعض أن كلا الفريقين قد أساء فهم عقيدة الآخر بمحاولته أن يضمها خلال طراز الاعتقاد الذي يؤمن به»<sup>(٢٥)</sup>! وشأن كثير من التعميمات لا يبدو مثل هذا النص منصفاً كما يحاول أن يكون. فإن المسيحيين وحدهم هم الذين ظلوا طوال القرون يحاولون فهم الإسلام - أو إساءة فهمه من خلال اصطلاحات المسيحية. أما النظرة الأساسية للمسلم فقد ظلت على حالها لم تتغير على الدوام لأنها جزء من الوحي الإلهي في القرآن<sup>(٢٦)</sup>. ولم يحاول مسلم مؤمن أن يدخل المسيحية في إطار آخر. والمسيحي لا يواجه في كتبه المقدسة قيوداً صريحة تحجزه عن تقبل وجهة نظر المسلم عن الإسلام، ومع ذلك فهو يرفض لا رأي المسلم في المسيحية فحسب، بل رأيه في الإسلام أيضاً، وهو يسمى جاهداً لتغيير الرأيين!

وصاحب العبارة المشار إليها في الفقرة السابقة هو رجل خبير في أبحاث الإلهيات، وقد بدأ وجهته هذه مدرساً في معهد تبشيري في لاهور. وهو يجعل من كلماته اعتذاراً لمحاولته لإدراك أحد الأهداف المسيحية. وهو في هذا السبيل يناقش خطأ شائعاً كما يقول بين المسيحيين والمسلمين وهو افتراض «أن دور المسيح في المسيحية ودور محمد في الإسلام مما يمكن المقارنة بينهما وهذا التقرير مضلل أيضاً إذ إن مثل هذه المقارنة إنما تصح في جانب المسلمين الذين يؤمنون بالمسيح رسولاً من رسل الله للبشرية! أما بالنسبة لجانب المسيحيين عامة والمستشرقين خاصة فإنهم لا يعترفون بمحمد رسولاً أو يرونه قد وقع في لبس فظن نفسه رسولاً» كما بدا من العرض السابق. وفي مثل هذه الظروف، في أي جانب تصح المقارنة؟ والصفحات السابقة تبرز إلى أي مدى تعقدت من قبل دراسة الإسلام وحياة محمد بما أدخله المستشرقون من مسائل جدلية لا سبيل لحلها. وإذا ما استفدنا أنفسنا من هذه الورطة، فإن الفروض المقارنة المعروضة إذا ما أخذت مأخذ الجد فإنها توقعنا في شرك جديد!

إن هذه الفروض تذهب في إيجاز إلى أن دور محمد في الإسلام ودور القديس بولس في المسيحية «أكثر قابلية للمقارنة» وأن القرآن يمكن مقارنته بشيخ المسيح، في حين يقارن حديث النبي بالكتاب المقدس! وقد توالى عرض المزيد من المقابلات<sup>(٢٧)</sup>، ولا يعني هنا الصورة التي يمكن أن تستقبل بها مثل هذه (المطابقات) في الدوائر المسيحية اللاهوتية وإنما يهمننا الغرض الذي أعلنه الكاتب في عباراته، وهو **الاتصال** (Communication)، أو **التواصل** (intercommunication) بين المستنيرين من المسلمين والمسيحيين. ترى هل تكون هذه المماثلات (Analogies) مؤدية إلى الهدف؟ إن الأبناء الصادقين غالباً ما ينسون كأفراد ما تتضمنه أفكارهم حين يواجهون عقائد الآخرين ومشاعرهم وتحاملهم. ومن الصعب في حالتنا هذه أن نتصور أن مؤلف هذه المماثلات يتوقع لها أن تجدد ترحيباً لدى علماء المسلمين ولنستبعد سوء الفهم بالنسبة لمقصد هذه الكلمات. إن

المماثلات ليست وحدها مثار التساؤل بالدرجة الأولى، وإنما يثير التساؤل قبل كل شيء هذه الـراية المصطنعة التي يعرض تحتها هذا كله، هذه الدعوى العريضة عما لهذا المسلك من معان جلييلة وآثار تنوير المسلمين!

والحقائق الثابتة عن رد الفعل بين المسلمين لا يبدو أنها تعني الكاتب أو تدعوه إلى الروية! وهو نفسه يقر بأنه عرض إحدى ممالته على مسلم متحرر يحمل درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن فصدّم بها كثيراً ولم يتردد في رفضها. ولكن هذا لم يقنع المؤلف ولسنا في حاجة للذهاب إلى الأزهر لنكتشف معارضة أقوى. إن الكاتب نفسه قد رجع إلى ثلاثة ممن يسمون «بالمغتربين» (Mesternized) من المسلمين كل على انفراد، وكانت الإجابة واحدة على اختلاف في درجة التعبير بين الحدة والرقّة، فقد وصفت هذه المحاولات بأنها «سطحية» و«تافهة» و«كفر صراح»... ترى مع من يكون اذن «الاتصال» و«التواصل» وإلى من يكون «التنوير»؟.

إن الجدل السطحي الضيق، وانتزاع المقابلات واصطناع المماثلات قد يكون جذاباً لاستاذ مقارنة الأديان يرى واجباً عليه أن يحاول واعياً كي يجد بصورة ما موضوعات للمقارنة كما قد تكون هذه العمليات المتهمة مما يعني المبشر الذي قد يستخدم هذه المماثلات لاستئناس المقاومة وفتح الطريق. وربما كانت هذه المحاولات نافعة أيضاً لمدرس غير مسلم في جامعة غربية كطرائف تعطي لعمله شيئاً من الحياة! ولكن صدوره عن عقل مسيحي متخصص في الإلهيات وغارق في الإصطلاحات المسيحية، يجعله على الأقل بغير ثمرة لمن هم على علم من المسلمين<sup>(٢٨)</sup>، فإن الأمر في حقيقته حوار اجتماعي لأجل أن يكون مثمراً فلا بد أن يتناول موضوعات تكون مقبولة ومثيرة لاهتمام كل من الجانبين.

وهذا مبشر قديم يحاضر في الشريعة الإسلامية بجامعة لندن، يعمل على تضمين مقالة واحدة كل اعتراضات العصور الوسطى على محمد وعلى الإسلام، على نهج أقل من نهج زميله الذي أشرنا إليه الآن تبصراً ودهاء، ولا يبدي احتراماً يذكر لذكاء القارى! ومن المدهش أن يعلن المؤلف في مقدمته أنه يقدم «معلومات صحيحة» لمعالجة الدراسة «موضوعياً» حتى يكون «منصفاً» «مدققاً» ويتوقى «المقارنة عن طريق المقابلة مع المسيحية»<sup>(٢٩)</sup> - (Adverse Comparison with Christianity). ولكن بعد هذه الإعلانات كلها عن الموضوعية، يكتب الكاتب أنه «لا يمكن أن يكون هناك شك على أية صورة» أن محمداً قد تمثل أفكار من التلمود وبعض المصادر المحرفة، أما بالنسبة للمسيحية فإن هناك احتمالاً طاعياً بأن محمداً قد استمد إيماءه منها!

وقد يثير انتقاء الكلمات وحده الشك في أمر كفاءة الكاتب كي يكون قاضياً، ولكن معالجته الفعلية للموضوع في مجمله يكشف عن هذا بصورة أوضح. ولقد تعرض شخص محمد لكثير من الافتراء، ولكن بظل الافتراء الرئيسي هو ما يمس جوهر رسالته وتقديمه للقرآن ككلام الله في حين أنه ليس كذلك! وهكذا نهج

الكاتب بالنسبة لمحمد وبالنسبة للإسلام . وعلى هذا النحو يكون الحجج الى مكة - احدى دعائم الإسلام الخمس - مفتقداً للباعث المعنوي (Moral uplift) ، ويكون دين الإسلام كله على أحسن الأحوال « بارداً شكلياً »! والمؤلف يقول كسابقه إن مستويات الإسلام الأخلاقية قد جعلته ينفر!

ويتضح تماماً ما إذا كان هذا المنهج يرقى إلى الموضوعية التي وعدنها بها الكاتب أم لا . إنه ينسى ماضيه كمبشر قديم ويكتب من هذه الزاوية ، وهكذا يصدر الحكم في شأن (نقائص) الإسلام من زوايا مسيحية أوروبية عصرية! ويكون الهدف إنجيلياً خالصاً! وبالنسبة للتطورات المحتملة داخل الإسلام في العالم المعاصر يناقش الكاتب فرص الشيوعية ، ولكنه يؤمل كما يظهر في (تحول على قياس لم يسبق له مثيل الى المسيحية التي لم تعرض بعد بالصورة المناسبة للعالم الإسلامي)! وهو إذ يخوض بعض المناقشات المعروفة عند المبشرين يجد من العقبات التي تعترض الطريق نحو « تحويل المسلمين إلى الانجيل » (Evangelization To Islam) حكم الردة ، وافتقار النصوص التي تعين على تحويل المسلم عن دينه في القوانين العصرية التي صدرت مؤخراً<sup>(٣٠)</sup>! وهو يحتتم مقاله في أسلوب شعري (إن للعالم أن يرى ماذا سوف يحدث حين يعرض إنجيل المسيح الحي بالصورة الملائمة للملايين المسلمين)!

وليس ثمة حاجة لفحص مؤلفات الكاتب التي تتعلق بمهنته . فهي معلومة موصوفة في مجال العمل القانوني المعاصر في عدد من الأقطار الإسلامية . فإلى جانب الحكم الأخلاقي المتكرر طبقاً للنظرة المسيحية ، فإن هناك فكرة رئيسية قد عرضت في السطور السابقة . والشرعية الإسلامية ليست نصوصاً جامدة ، وقد تعرضت خلال التطبيق لمحاولات التجديد والتنقيح ، وبصورة قوية في الزمن القريب . ولكن الكاتب لا يعنى كثيراً كما يتضح من كتابته بتفهم تاريخ الشريعة الإسلامية! إن الأصول الرئيسية للشريعة هي القرآن والسنة ، فللشريعة طابعها الإلهي ، ولكنها تستمد من مصادر أخرى بجانب هذين المصدرين خلال تجارب الإنسان في الحكم ، فهناك مجال للصنعة البشرية أيضاً . ومن هنا يكون القانون معرضاً للمراجعة والتنقيح من الإسلام إلى أيامنا هذه .

ولنضع موضع التقدير - على سبيل المقابلة - مسلك باحث له جهده المتميز في دراسة الشريعة الإسلامية ، إنه لا يدفع النتائج إلى ثنايا بحثه في تحامل عقلية عداوة متأصلة كامنة<sup>(٣١)</sup>! وعلى الرغم من أن بعض أهل العلم من المسلمين يجحدون تحليله متشككاً ، وقد يناقشون مؤلفه تفصيلاً ، إلا أن دراسته الرئيسية على الرغم من ظاهرها ليست مما يصطدم تماماً مع أصول الإسلام ، فسواء أكانت الشريعة الإسلامية طبقاً لنظرة الدين مستمدة بالدرجة الأولى من القرآن والسنة ، أم كانت ثمرة تمحيص فقهاء القانون القائم المألوف (existing customary Law) وأصحاب الخبرة الإدارية كما يقرر البحث المشار إليه ، فإن النتيجة في الحالين واحدة . وبالنسبة للجماعة الإسلامية في عهدها المبكر كان هذا النتاج نظاماً قانونياً يتفق مع القرآن والسنة والتجارب المعتمدة . ويلزم مثل

هذا الحياء العلمي في دراسة التجربة القانونية المعاصرة، فلا يختلط باعتساف الأحكام الخلقية أو الدعاية، والتشريع الحديث في صورته المنسقة التي انتهى إليها، ينبغي أن يوزن بموازين الإسلام، وطبقاً لهذه الموازين لا بد للتشريع الحديث كي يكون ناجحاً أن يكون مزاجه التركيبي الخاص (synthesis) كما كان للتشريع في عصوره الأولى، ولن يعني هنا تشكيل آلي جديد لنصوص التراث القديم ولا تركيب مدني يستتر وراء واجهة إسلامية، إن ما يلزم في هذا الصدد هو (تقويم للحياة الاجتماعية العصرية والفكر القانوني المعاصر من زاوية إسلامية) (٣٣).

#### - ٤ -

عندما استغرق الجدليون الأول في الإساءة إلى الإسلام والتضليل في فهمه، كان غرضهم تخريبياً هداماً. وبدخول الأهداف التبشيرية أصبحت هناك حاجة إلى شيء من الموضوعية! وأصبح منهج العمل مزجاً من تشويه الإسلام وإظهار مغايبه، ولكن على أساس من وقائع أكثر ثباتاً لأجل المقارنة مع المسيحية، وقد هجرت الآن الطريقة الأولى عملياً، أما الثانية فقد هُوِّنَ منها شيئاً ما أو ألبست زياً جديداً، ومن صورها المعتدلة القول بأنه لا بد للإسلام من إصلاح (reform) ولا نستطيع أن نتبين أول من نادى بهذا الاقتراح أو استعمل هذا التعبير في دلالة الغربية، ولكن من الواضح جلياً أن كثيراً من الهراء قد سطر حول هذا الموضوع حتى غدا من الضروري استجلاء معانيه.

إن المستشرقين - وبخاصة البروتستنتيين منهم - لم يستطيعوا أن يحرروا أنفسهم مما يمكن تسميته بمحتمية الإصلاح في دين من الأديان! ولعل لا يكون مجرد مصادفة أن الباحثين اليهود (والروم الكاثوليك) قلما ينشطون للمشاركة في هذا الموضوع الذي يكاد يكون حكراً للباحثين البروتستنتيين، وعلى الرغم من أن المطابع قد قذفت بكثير من المحاولات التي تتناول مسألة الإصلاح في الإسلام المعاصر، وعلى الرغم من أنه لا تبدو بوادر توقف أو تناقص في هذا السيل المنهمر يبدى ويعيد القول في فكرة أو فكرتين بعبارات متباينة، إلا أننا ما زلنا نفتقد صياغة واضحة متلاحمة الأجزاء لهذه الأفكار فيما نشر، وبصرف النظر عما يخفيه هذا القناع في أعماق اللاشعور، فإن اقتراح إصلاح الإسلام إذا أخذناه بظاهرة يمثل محاولة أخرى لتغيير وجهة نظر المسلم عن الإسلام، ولجعل الإسلام أقرب بقدر الإمكان إلى المسيحية، أو إلى الصورة البروتستنتية إذا شئنا تعبيراً أفضل!!

وإذا تركنا جانب المدنية والحضارة والثقافة، فإن للإسلام بالضرورة مجالين: العقيدة والشريعة، والأولى بالطبع محكمة جلية لفهام العالم كله وليست معرضة لتغيير، أما شريعة الإسلام فهي مستمدة من الوحي ومن نصوص السنة التي وردت خلال التجربة البشرية للحكم، ومن هنا كانت هذه الشريعة منذ أيام الخلافة الأولى



حتى وقتنا الحاضر معرضة للتفسير واختيار ما يلائم نظم الإدارة وبيوافق الفن القانوني المعروف والتجربة، وما يقابل في الأيام الأخيرة التشريع المدني، فأين يريد دعاة (الإصلاح) أن يحموا اصلاحهم، وما هو بالضبط الذي يريدون أن يحموه، ولأي غرض من الأغراض!!

نحن لا نريد أن نروغ إلى تفصيلات فرعية، ولكن ينبغي أن يتضح لكل ذي علم صحيح بالإسلام أن الإصلاح بمعناه المفهوم لا يمكن أن يتسرب إلى مذاهب الاعتقاد دون أن ينقص من سلامتها أو يقضي عليها تماماً. ومن هنا لا يبدو محتملاً أن يقبل مفكر مسلم أن يساند مثل هذه المشروعات، ولو فعل لما وجد مرجعاً دينياً مسؤولاً يتسامع معه فيما ذهب إليه، ومن يؤيد من علماء المسلمين مثلاً صورة جديدة في عرض الإسلام تذهب إلى تطعيم كيان العقيدة الإسلامية بالاعتقاد المسيحي في الخطيئة الأصلية (original sin) أو التجسيد (incarnation)!

وللتمثيل على الاضطراب والتخطيط في هذا (الاصلاح) يكفي أن نتبصر حقيقة الازدواج المتناقض في منزع دعاة هذا الإصلاح من غير المسلمين. فهم بينما ينعون على الاسلام الجمود حتى انه لا يقبل من التغيير في نظامه الا قليلاً، اذا بهم حين تستحدث تغييرات بعيدة المدى لا يتركون فرصة الا ويرزون ان مثل هذه التغييرات فيها تقويض للشريعة. والجماعة الاسلامية تستطيع الحكم في مثل هذا الأمر بصورة افضل قطعاً مستهدية بمبدأين في هذا السبيل: ان يكون التغيير متفقاً مع المصلحة بالنسبة للجماعة، ومع مبادئ العدالة. حقيقة ثور اعتراضات على مثل هذا التغيير حتى في زمننا، والاختبار الضروري لسلامة التغيير الحادث قديماً وحديثاً، هو رضا الرأي العام في الجماعة وموافقة العلماء في الاقليم الذي يجري فيه التغيير. وهناك شواهد طيبة أن هذه السلطات ما زالت الآن كما كانت من قبل تبدي مرونتها وسماحتها للتوافق مع الاحكام المستحدثة.

وأول مستشرق ناطق بالانجليزية ينتج ثماراً فكرية للإسلام في العصر الحديث وما فتئت أفكاره تعمل على تزويد من يأتون بعده بالاصول التي تحتاج إلى التوسع، بوجه عنايته كي يتوقى أن يقحم نفسه متطفلاً على جماعة المسلمين أو يجعل نفسه وصياً عليهم حامياً لهم. فكل ما يفعله المسلمون، أو ما سوف يفعلون في نهجهم العقيدي أو الشرعي يرده المستشرق الرشيد إلى أهله من العلماء<sup>(٢٣)</sup>. أما الباحثون الذين لا تكون لهم مثل هذه العناية فهم يقفزون من الدراسة الوصفية إلى اقتراح العلاج وإصدار النبوءات عن المستقبل. ولا يستطيع الغريب على نظام ديني أن يتخلى عن أن يكون لطيفاً - فهذه صفة أولية لا بد منها كي يتوقع من الناس أن يسموه أو يحترموه!

إن الإدراك الديني تجربة روحية حدسية (intuitive)، ولا يمكن التقاطها بالمناهج التحليلية والنقدية. وهؤلاء الذين يكونون خارج نظام ديني لا يمكنهم اقتناص دلالة التجربة التي يمارسها من يعيشون داخل هذا النظام<sup>(٢٤)</sup>.

إنه شيء لا يمكن تعلمه من الكتب. ومن هنا كان الخلط في طبيعة أهداف « الإصلاح » المزعوم بين دعاته من غير المسلمين. ومن هنا كانت الصعوبة التي يواجهها من يعيشون داخل الجماعة الدينية في تفسير دينهم لمن يطلبون عليهم من الخارج ويحاولون عبثاً تقدير لحنها الأساسي في أغواره العاطفية والحدسية البعيدة، مما يغفل عنه المستشرقون الذين يستمدون - معرفتهم بالإسلام أساساً من الكتب.

وفي الحالات النادرة التي يناقش فيها هؤلاء معالم الإسلام مع علماء المسلمين أنفسهم قلما تكون النتيجة مرضية. فالمسلم يفترض أن المستشرق ينتهي إلى اتهامه بالجهل دون تبرير معقول! ثم أن هناك صعوبات اللغة نفسها، وقليل من المستشرقين من يستطيع إدارة مناقشة بالعربية (أو الفارسية أو التركية) أو المضي فيها. ولا يزال المسلمين الذين تمكنوا من لغة أوربية يعانون نقصاً، فإنهم قلما يستطيعون أن يبادروا المستشرق في استعارة الإشارات الثقافية اللامحة في تلك اللغة، فضلاً عن النفاذ إلى تراثها الكلاسيكي والاستحواذ عليه واستعماله.

هذه بعض العقبات التي تجعل اقتراحات المستشرقين إما غير مقبولة أو سيئة الأثر، وبينما كان كاتب هذه السطور يجمع المادة اللازمة لدراسته كانت الكتابات المنشورة التي تضمنتها قد درست من المستشرقين والباحثين المسلمين والعرب في أوروبا وأميركا والعالم العربي. والمثال المناسب للمقام هنا هو رأي باحث يجمع بين التعليم الديني الإسلامي والتعليم في جامعة غربية. أن يقول: « لقد عرفت بعض المستشرقين الذين يتعاملون مع الدارسين المسلمين في استعلاء وتعظيم. وكان هؤلاء المستشرقين إذا ما تساءلوا عن مسألة إسلامية فكأنما يعلنون ضمناً أنهم يعلمون كل شيء عنها سلفاً في حين أنهم يأخذون بوجهة نظر أخرى مع قليل من التبصر الحقيقي والنفاذ إلى الأعماق! »

وفي صدد موضوع « الإصلاح » تبدى ملاحظة بنغمة أو بأخرى. وينبغي ألا يفترض على أية حال أن مثل هذا الحلق الذي انعكس على السطور السابقة إنما تسبب عن مصادمات اجتماعية أو أكاديمية سطحية. وربما يخاطر المرء بالقول بأنها لا تنجم ابتداء من بواعث دينية مباشرة. ولكن التاريخ المشؤم للدراسات الإسلامية التي خرجت إلى الوجود من سلاله الجدول والتبشير، وميراث الصراع العسكري الطويل بين عالم المسيحية والإسلام، لا يزال كلاهما يلعب دوره بصورة شعورية أو لاشعورية في تحديد اتجاهات المسلمين. هناك شعور أحدث تاريخاً وأكثر مرارة أن أفكار « الإصلاح » جاءت مع النفوذ السياسي المسيحي على أجزاء كثيرة من أرض الإسلام، أو نتيجة لهذا النفوذ<sup>(٣٥)</sup>. ولقد كان اللقاء المبكر بين الإسلام والفكر الإغريقي شيئاً مختلفاً، فقد كان الإسلام يحكم في مقام رفيع وكان هو السيد صاحب الرأي والتمييز، يقبل أو يرفض ما يشاء من العناصر الأجنبية أما في الزمن الحديث فإن تمييز الإسلام لما يقبله أو يرفضه يميله أو يدفع إليه أو يحد منه أفراد أو هيئات أجنبية غير إسلامية يشك المسلمون أحياناً فيها ويرون أنها تتصرف وفقاً لما تمليه المصالح الأجنبية.

وقد يفسر هذا لماذا لا ينال « الإصلاحيون » من ذوي التوجيه أو التشجيع الغربي أي نجاح في استمالة تفكير المراجع الإسلامية المسؤولة. وإنما هم ينالون الإعجاب أساساً من المستشرقين وأشياهم. ومن ناحية أخرى كثيراً ما يدفع بالرجعية المصلحون الأصلاء من أبناء الأمة الذين قد يكون لديهم شيء جوهري له قيمته. وكذلك لا ينال كل الرضا من اختاروا طريقاً وسطاً يقترب قليلاً أو كثيراً من أسلافهم في العصر الذهبي، وإنما يقال عن هؤلاء أنهم لم يذهبوا المدى الكافي! ولكن هؤلاء لا يستطيعون أن يذهبوا أبعد من ذلك. فإن العلماء في كل العصور لديهم موهبة فطرية جماعية تشير لهم إلى أي مدى يذهبون، وماذا يرتضون من حلول التوفيق وأين يصمدون تثبيتاً لنظامهم. ولقد كان محمد عبده وتلاميذه أصحاب مثل هذا التوفيق، ولم يكن تزمت الوهابية (Puritanism) في طرف، أو تحرير بعض المسلمين الهنود (Liberalism) في الطرف الآخر شيئاً مقبولاً عند هؤلاء أو عند الجماعة الإسلامية في جلتها.

ومن أجل ذلك، كانت الضرورة الأولى اللازمة لأي تغيير أو إصلاح ناجح أن ينبع من داخل الأمة ويصدر منها ابتداء في استقلال عن أي سيطرة أو إيماء من جهة أجنبية. ومنذ التجديد التمهيدي الأصيل في الامبراطورية العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر في عهد سليم الثالث، ومنذ جهود مفكري المسلمين في الهند للملاءمة بين الشريعة الدينية وبين واقعات السيادة غير الإسلامية تحت ضغط الإجراءات القانونية البريطانية في الهند، استمر التغيير في تطبيق الشريعة الإسلامية الى وقتنا هذا، ولربما تزايدت سرعة التغيير نتيجة لاسترجاع الأمم الإسلامية سيادتها أو نيلها الاستقلال، لكنها لم تبط قط، وإذا كانت المعارضة قوية للتغيير في مبدئه، فإنما كانت تمليها الى حد بعيد الخشية من تعرض الشريعة المقدسة للخطر في أيدي الأجانب غير المسلمين، ولقد تزايد التغيير ولكن تضاعفت المعارضة، وقد يكون من أسباب ذلك الشعور بالضمآن في ظل الحكم الإسلامي وغلبة الواقعية ونزعة التوفيق على المراجع الدينية المسؤولة.

إن من الخطأ إذن المضي في تأكيد القول بجمود الإسلام وعدم قبوله للتغيير. فإذا ما تجاوزنا دائرة العقيدة الأساسية وبعض المسلمات الدينية المحدودة، فإن الإسلام قد واجه تغييرات ثورية في هذا الجزء من نظامه الذي يوجه حياة الفرد والجماعة. ومع ذلك يكتب لاهوتي مسيحي يتميز بأنه يعد مبشراً مستنبراً أو مبشراً له دراية بالإسلام فيقول منذ قليل<sup>(٣٦)</sup> « إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً فيه أو أن يتخلى عن مسيرة الحياة »! ومن الصعب تبين ما يعنيه ذلك بالضبط. ولكن في ضوء ما سلف من مناقشة يكون أحد شطري هذا التقرير غير مقبول، أما شطره الثاني فيبدو وكأنه دعوة يوجهها الى المسلمين غريب عنهم بشأن ما يفعلون في دينهم! وإلى هذا الحد يصل التخليط بدعاة (الإصلاح)<sup>(٣٧)</sup> إن القوم لا يتبصرون في المضمون والتفاصيل، فهم يتورطون في التعميمات المبهمة التي لا تثبت للامتحان.

## الحواشي

- (١) إن دراسات الاستشراق في المجالات الإسلامية والعربية هي بالطبع بناء دولي، اشترك فيه المشرقون الغربيون من انجليز وفرنسيين وألمان وإيطاليين وغيرهم. والدراسة التي يتناولها المقال يمكن أن تطبق على معظم هؤلاء، وإنما حددت بالمشرقين الناطقين بالانجليزية لمراعاة مقتضيات البحث. وحتى في هذا النطاق المحدد، تناولت الدراسة فحسب الباحثين الذين لهم آراء منشورة تتعلق بموضوع الدراسة.
- (٢) قرر جمع ثيناس (١٣١٢ م) إدخال العربية مع لغات أخرى في جامعات: باريس، بولونيا، أكسفورد، سلمنكا، Roman Curia. أنظر: H. Rashdall: The Universities of Europe in the middle ages, Oxford 1895, II, pp-1, 30 81-2, 96.
- وهو يقر (ص ٣٠) - إن الغرض من هذا القرار كان تبشيراً خالصاً وكسباً لا علمياً.
- (٣) على سبيل المثال: Dmle Dermenghem: La Vie de Mahomet, Paris 1929, 136-R, W. Southern, Western: Views of Islam in the Middle ages, Hgruord lluis press, 1692, 37.
- A J-Abesry: The Cambridge Sahooc of arabic, Cambridge 1948, p.8.
- (٤) على سبيل المثال: Proceedings of the Church Missionary society 18823, p. 5. وفيه (أن حلة فتح مصر وما أثرت عنه من آثار باحتلال إنجلترا المناطق واسعة من البلاد، هو مما يزيد مسؤولية المسيحيين الانجليز في تقديم انجيل المسيح إلى مصر).
- (٥) على سبيل المثال: دكتور محمد البهي، تقديم كتاب الشيخ محمود شلتوت: الاسلام، عقيدة وشريعة - مطبعة الأزهر ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م، (ص ٣، ٥).
- (٦) عاون لين كثيراً في وضع معجمه شيخ أزهرى، هو ابراهيم الدسوقي الذي كان مصححاً في مطبعة بولاق. أنظر: A. A. Paton history of the Egyptian Revolution (London 1870) II, 270 quoted by Heywarth-Dunne. Printing and Translation under Mohamed Ali of Egypt - in the journal of the Royal Asiatic Society July 1940, 315.
- (٧) تعلم (صمويل لي) في كلية (Queen's College) بمنحة دراسية من جمعية الكنيسة التبشيرية (Church Missionary Society)، وذلك طبقاً لما جاء في (C, M.S. Committee Minutes II, 91, 349).
- (٨) لأجل العرض التاريخي، أنظر: J. Fück, Die Arabischen Studien in Europa bis in den Anfang des 20. Yahrhunderts. Leipzig 1955.
- (٩) أنظر على أية حال: H. A. R. Gibb, Mohammedanism, Oxford 1950, 35-37. الذي يقرّ في وضوح وجهة النظر المتعارفة لدى المسلمين قبل أن يعرض لتزيين القول، بأن القرآن هو تعبير عن محمد صادر منه (Mohammad's Utterances). وهذا آوهرى (A. J. Arbery) أبرز مستشرقى الانجليز الاحياء، يعتبر القرآن نتاجاً فوق الطبيعة (supernatural)، لكنه يشارك المسلمين الرأي أنه من مصدر الهي. أنظر: The Holy Koran 1953-32.
- (١٠) مثل هذا المعرض، أورده دانيال (N. Daniel) في: Islam and the West, the Making of an Image (Edinburgh, 1960), 305.
- (١١) أبدى قيسس الانجليزي، وعالم مبرز أيضاً هو بيرنوز (E. W. Barnes) في كتابه: The Rise of Christianity, London 1848. كيف كانت أصول المسيحية - واليهودية من قبلها - عميقة الجذور في تراث الشرق الأدنى من أساطير وخرافات ووقائع. والمؤرخ الذي ينظر إلى الكتاب المقدس وإلى القرآن كوثائق إنسانية قد يطالب المستشرق الذي يجادل عن دعوى الأصول اليهودية المسيحية للاسلام، بأن يدقق في الملاحظة والتأمل، ثم يبدي ما يتضح له من انعكاسات!
- (١٢) انظر مثلاً: A. Guillaume: The life of Mohammed, Oxford 1956, 86' a quotation from the Gospel, 655, «an allusion to Matt. XXL, 33f. Montgomery Watt, Islam and integration of Society, London 1961. 262. quotations.

from the bible begin to appear in muslim works».

وكل هذه الاقتباسات قد حدثت حين لم يكن هناك ترجمة عربية للكتاب المقدس يقتبس عنها!

(١٤) مثلاً:

Rosenthal: The influence of Biblical Tradition on muslim historiography in B. Lewis, P.M. Holt (eds) Historians of the Middle East, Oxford 1962.

وبينما يتابع روزنتال القول بأن القرآن من إنشاء محمد، وأنه استمد الأجزاء التاريخية على الأقل من مصدر يهودي مسيحي متأخر، نراه أكثر دقة من الباحثين الذاهبين هذا المذهب. فهو يبيد إحساساً تاريخياً، حين يستخدم كلمة متأخر (Altimate)، كما يبيد حياداً عقلياً، بالتحذير من إلقاء القول على عواهنه (speculation) والآراء المسبقة (Preconceived). ولكنه ينزلق مستملاً لتأثير الإيحاء نفسه، فيقبل فروضاً لا يقوم عليها دليل. (أنظر Geressins pp35-36). وربما كان ناشرو هذه المجموعة القيمة من المقالات أكثر دقة في هذا الصدد، فقد قرروا في مقدمتهم (pp 2,11) أن الشرق الأوسط (شهد مولد ثلاث ديانات كبرى للبشرية، اليهودية وخليفاتها المسيحية والاسلام)،

(١٥) نقلاً عن:

R. G. Collingwood: The Idea of History, Oxford 1951, 69, 71.

H. A. R. Gibb: «The Influence of Islamic Culture on Medieval Europe», in the Bulletin of the John Rylands Library Manchester, XXX V III, 1955-6, 85:7.

G. E. von Grunebaum islam: Essays in the nature and growth of a Cultural Tradition, London 1961, (١٧) 228.

(١٨) ومن هنا يجب مناقشة مدى سلامة ملاحظة أخرى لفون جرونباوم أنظر:

Problems af Muslim nationalism, in R. N. Frye (éd) Islam and the west. The Hague 1957, 29.

[... إن الضغط المحافظ يضطر إلى إخفاء الاستعارة بقدر الامكان وراء حجاب من الأساطير (ortogenetic legend) ].

W. M. Matt: «Islam and the Integration of Society, London 1961, 293. (١٩)

B. Lewis: The Arabs in History, London 1960. انظر مثلاً: (٢٠)

وهو في هذا الكتاب الموجز غير الموثق، يستعمل لغة أكثر حذراً، حين يقول: «... وعلى وجه الاحتمال من التجار والرحالة اليهود والنصارى، الذين تأثرت معارفهم بمؤثرات مدراسية أو مشكوك في صحتها» (ص ٣٩).

A. Guillaume: Islam, 1954, 162-6 et passim (٢١)

Ibid, 74. (٢٢)

The Listoner, London, Ostaber 16, 1952, 635 a. (٢٣)

A. L. Tifamy, The Life of Mohammed A critique of Guillaumés English Translation islamic Quarterly III, (٢٤) No. 3, p. p. 196-214.

W. C. Smith: Islam, in Modern History, Prinaton 1957, 17. (٢٥)

(٢٦) هذه فرصة مناسبة لتقديم عرض سميت (W. C. Smith) الشاعر، لكتاب: (A Friday in Jerusalem) (City of Wrong) الذي نشرته (The Muslim World LI, April 1961, 134-7)، والكتاب ترجمة لرواية كامل حسين الفلسفية العربية (قرية ظالمة). وقد بالغ عارض الترجمة أكثر من المترجم في أهداف الرواية، حتى اعتبرها (حركة كبرى) من مسلم له مكانته نحو رأي المسيحية في الجمعة الحزينة. ولقد كان جب (H.A.R. Gibb)، أكثر انزاناً، حين لاحظ أن الإلهيات كانت بعيدة عن مقاصد الرواية، إذ إنها تقف الى جانب الآراء الاسلامية الأساسية كلها، ثم هي تستبعد أية اشارة إلى الرمزية المسيحية المتعلقة بالقصة. انظر: Religion in Life xxix 1959-69 158-9. وعلى هذا النهج من الحكمة، نجد عرض البرت حوراني (Albert Hourani)، الذي يتبين أن الرواية تعطي

(الجواب الاسلامي السلفي Orthodox) على سؤاليين أساسيين: هل المسيح ابن الله؟ وهل صلب حقاً؟. انظر: Frontier II, summer 1916, 19. وقد ذهب هذا المذهب في عرض للترجمة ومقدمة المترجم، انظر: Die Welt des Islam, VI. Ms. 3-4 (961) 289-1.

- (٢٧) The World of Islam, Studies in Honour of Philip K. Hithi London 1960 47: 59.
- (٢٨) انظر مثلاً: للدكتور محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي - القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م. (ص ١٨١).
- (٢٩) J. N. Anderson (ed) the World's Religions: London 1950. وليس للناسر سوى مقال عن الاسلام (P P. 52-98)، كما له مقدمة وخاتمة. والنصوص المذكورة سابقاً في صفحات: 7-8-54-56-58-59 60-82 (n, 1) 85 (n. 1) 92, 93, 97-8.
- (٣٠) J. N. D, Anderson. Islamic Laws in the Modern World, New York, 1959, 98. انظر مثلاً:
- (٣١) J. Schacht: The Origins of Mohammaden Jurisprudence - Oxford, 1950.
- (٣٢) J. Schacht: Problem of Modern Islamic, Legislation in Studia Islamica, xli, 129.
- (٣٣) H. A. R. Gibb. Modern Trends in Islam - Chicago 1947; 122. 129.
- (٣٤) انظر مثلاً: P. Ferris. The Church of England London 1962 نقلاً عن: Observer, Oct 7, 1962، «إن الذي ينظر من الخارج مسائل عن الكنيسة، يأتيه الجواب غالباً بأنه لا يستطيع أن يفهمها ما لم يكن في داخلها، حتى وإن كانت تعتبر مثل هذه المحاولة من جانبه أحياناً تطاولاً غير مستساغ (impertinent)».
- (٣٥) أحمد أمير: يوم الاسلام، (ص ٢١٥).
- (٣٦) K. Graagg: The Call of the Minaret, New York, 1956, 17.
- (٣٧) انظر مثلاً: تعبيراً مضللاً آخر «اصلاح دين الاسلام» (Reform of the religion of Islam) الذي يستعمله: G. G. Adams: Islam and Modernism in Egypt - Oxford 1933, 2, 187.